مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: العلامة والرواية دراسة سيمائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي
اسم الكاتب: محمد مصطفى كلاب
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/8913
تاريخ الاسترداد: 2026/11/01 22:36 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية



المجلد 13 ، العدد 2

ربيع الأول 1437 هـ / ديسمبر 2016 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

□□□□□□□ □□□□.indd 1 2/8/17 10:05 AM

العلامة والرواية:

دراسة سيميائية في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي

محمد مصطفى كلاب

كلية الآداب - الجامعة الإسلامية (غزة)

غزة - فلسطين

تاريخ الاستلام 2015-12-27 **تاريخ القبول 2016-04-26**

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى دراسة العلامة في رواية (ستائر العتمة) دراسة سيميائية، للوقوف على طبيعة توظيف الكاتب للعلامات، والكشف عن دورها في تشكيل الفضاء الروائي، ومعرفة مدى قدرة الكاتب على استثمار العلامات السيميائية في إنتاج خطاب روائي، قادر على التعبير عن تجاربه، وإحداث مؤثرات دلالية، وجمالية تزيد من انفتاح النص على فضاءات تأويلية واسعة.

وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، لدراسة الفضاء السيميائي للعلامة في رواية: (ستائر العتمة)، من خلال الحديث عن: مفهوم العلامة، والعلامة الزمانية، والعلامة المكانية، والعلامة الجسدية.

الكلمات الدالة: العلامة، السيميائية، الزمان، المكان، لغة الجسد، الهودلي.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 139 2/8/17 10:06 AM

مقدمة:

تتناول رواية (ستائر العتمة) جانباً من معاناة شاب فلسطيني، اعتقل بتهمة المشاركة في الانتفاضة، وتسرد – على لسان البطل عامر – ما تعرض له الكاتب وليد الهودلي من مواجهات ملتهبة في زنازين الاحتلال الصهيوني، ومكاتب التحقيق، استمرت لمدة تسعين يوماً، شاء الكاتب من خلالها أن يبلور الأبعاد المختلفة لآلامه وآماله، وأن يستعرض أساليب التعذيب المستخدمة في سجون الاحتلال الصهيوني، ويكشف قوة صموده في وجهها، وانتصاره على السجن والسجان.

يمتد تاريخ العلامة إلى ماضٍ بعيد، يرتبط ببدايات العلاقات البشرية، التي حاولت استثمار العلامات غير اللسانية- قبل اختراع الكتابة، للتواصل فيما بينها، ومحاولة التعبير عن أفكارها، وأحاسيسها، وانفعالاتها، وذلك عن طريق مطابقة دال الشيء على مدلوله، والمماثلة بين الاسم والشيء، أو الصورة والشيء. (ينظر، علي، 1996:27).

وتمثل العلامة نسقاً ثقافياً منتجاً للمعنى، محققاً للمسار التواصلي، كونها تنطوي على حمولات ثقافية، قادرة على التوالد المعرفي، مرتبطة ارتباطاً قوياً بوجهي العلامة: الدال والمدلول، وتتعداهما في أحيان كثيرة إلى مرجعيات خارجية، متجاوزة بذلك المرجعيات المعجمية التداولية، إلى آفاق إيحائية واسعة الدلالة، متعددة المعاني.

ولا تقصر سيمياء التواصل رؤيتها لأنظمة العلامات على الدال والمدلول، بل تتجاوز ذلك إلى البحث عن وجود القصد التواصلي، الذي يعزز من قوة العلامة، ويزيد من قدراتها التواصلية، وتشمل الطبيعة التواصلية للعلامة: العلامة اللسانية، وغير اللسانية، لذلك يمكن دراسة أنظمة العلامات على أنها طرق للتواصل، ووسائل للتأثير في المتلقي المعترف بها. (ينظر، مبارك، 1987:72، كذلك داسكال، 1987:39).

ومن الجدير بالذكر أن قدماء الصين، والهند، والرومان، واليونان، والعرب استثمروا المفهوم السيميائي، وتنبهوا إلى فاعلية العلامة، والإشارة في تفسير مكونات العمل، وفهم أنظمة التواصل اللغوية وغير اللغوية، فهذا (أرسطو) يعرِّف العلامة بقوله: «إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالة نفسية، والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت، وكما أن الكتابة ليست واحدة عند البشر أجمعين، فكذلك الألفاظ ليست واحدة هي الأخرى، ولكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع، كما تكون الأشياء التي تمثلها هذه الحالات أيضاً متطابقة» (حمودة، 1978:225).

ولم يتوقف استثمار القدماء للمفهوم السيميائي عند تعريف أرسطو للعلامة، بل تعداه إلى عنايتهم بالإشارة، وعدّوها ذات أهمية أساسية في فهم النص، واستكناه المعاني الخفية،

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 140 2/8/17 10:06 AM

والمسكوت عنه، كونها شريكاً للألفاظ، وفي هذا يقول الجاحظ: «الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط» (الجاحظ، 2008:57).

والسيماء لفظ عربي أصيل مأخوذ من «سَوَمَ، وهي العلامة التي يعرف بها الخير من الشر، وسَوَمَ الفرس أي جعل عليها السيمة» (الأزهري، 3/112: 1964).

وقد جاء في التنزيل الحكيم {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} (الفتح:29)، والسيماء هنا هي العلامة الناجمة عن تكرار السجود في الصلاة.

وجاء ذكر السيماء في الشعر العربي في أكثر من موضع شعري، نذكر منها قول ابن عبدربه الأندلسي: (الأندلسي، 66: 1979)

على وجهه سيما المكارم والعلا فضاءت به الآمال وابتهج الشعر

و هذا يبرز قدم معرفة العرب بالسيماء التي هي علامة يعرف بها الخير من الشر.

والعلامة التي يعنى بها الدرس السيميائي قد توجد «في شكل وحدة لغوية مفردة هي الكلمة، وقد توجد داخل نسق كلي مصغر هو الجملة، وقد توجد على شكل نص، أو نسق أكبر، ينظم عدداً من الوحدات الصغرى، داخل عدد من الأنساق الصغرى، وهو النص ... لكن العلامة قد لا تكون في شكل لغة فقط، فقد تكون صوتاً موسيقياً (أو لحناً كاملاً يعادل النص اللغوي)، وقد تكون لوناً أو مجموعة ألوان في شكل لوحة، وقد تكون أي وحدة أخرى تستخدم لتوصيل دلالة» (حمودة، 264-265:1978).

وقد ارتبطت العلامة تاريخياً بالمنهج السيميائي، وبمرجعياته المتباينة، واتجاهاته المتنوعة، سواء كان الاتجاه الفرنسي مع (فردينا نددي سوسير)، الذي ينظر إلى العلامة على أنها تتكون من: دال وهو الصورة على اختلاف مرجعياتها، ومدلول وهو المفهوم. وللعلامة اللغوية لدى (دي سوسير) طبيعتان جوهريتان، الأولى: الطبيعة الاعتباطية للعلامة، ويعني ذلك: عدم وجود علاقة طبيعية، تجمع بين الدال والمدلول، وعدم خضوع هذه العلاقة لقوانين منطقية، وقد أحدث مبدأ اعتباطية العلامة تحولاً كبيراً في الدراسات اللغوية. والثانية: الطبيعة الخطية للدال، بما أن الدال ذو طبيعة سمعية، فإنه يجري في الزمن وحده، وله خصائص يقتبسها من الزمن، فهو يمثل امتداداً للزمن، ويقاس هذا الامتداد ببعد واحد، هو البعد الخطي، بواسطة علامات الكتابة. (ينظر، دي سوسير، 111-115:1985).

وكذلك ارتبطت العلامة بالاتجاه الأمريكي مع (تشارلز بيرس)، الذي يرى أن العلامة قد تكون لغوية، أو غير لغوية، وميَّز بين ثلاثة أنماط للعلامة هي: العلامة الأيقونية،

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 141 2/8/17 10:06 AM

والعلامـة الإشـارية، والعلامـة الرمزيـة. وتكـون العلاقـة بيـن الـدال والمدلـول فـي العلامـة الأيقونيـة علاقـة تشـابه وتماثـل، مثـل: الخرائـط، والصـور الفوتوغرافيـة، والأوراق المطبوعـة التـي تحيـل علـى مواضيعهـا مباشـرة، بواسـطة المشـابهة، بينمـا فـي العلامـة الإشـارية تكـون العلاقـة بيـن الـدال والمدلـول علاقـة سـببية منطقيـة، مثـل: ارتبـاط الدخـان بالنـار، أمـا فـي العلامـة الرمزيـة فالعلاقـة بيـن الـدال والمدلـول، تكـون علاقـة اعتباطيـة عرفيـة غيـر معللـة. (ينظـر، فضـل، 2005:85، كذلـك، السـمري، 2010:198).

وإن تنـوع مرجعيـات السـيميائية، وتعـدد اتجاهاتهـا، وفَّـر للـدارس مسـاحة واسـعة للتعامـل مـع النـص، لاهتمـام السـيميائية وعنايتهـا بشـكل النـص ومضمونـه، ودراسـته ضمـن منظومـة إجرائيـة عمليـة، لا تفصـل بيـن الشـكل والمضمـون، إلا فـي حـدود الـدرس النقـدي، ممـا جعـل عمليـة البحـث عـن الطاقـات الدلاليـة - مـن خـلال منظومـة العلامـات- عمليـة مزدوجـة تعنـى بشـكل النـص، ومضمونـه.

ويهـدف البحـث إلـى دراسـة العلامـة فـي روايـة: (سـتائر العتمـة)، دراسـة سـيميائية للكشـف عـن فاعليتهـا الدلاليـة، وآفاقهـا الجماليـة، والوقـوف علـى مسـتوياتها الإجرائيـة، وطبيعتهـا التعبيريـة، وطاقاتهـا الإيحائية.

وإن اهتمامـي بالوقـوف علـى الثـراء الدلالـي، والجمالـي، لفاعليـة العلامـة السـيميائية، كان دافعـاً وراء اختيـاري دراسـة العلامـة السـيميائية، للوقـوف علـى أهميتهـا فـي المنجـز الروائـي، ومعرفـة قدراتهـا فـي تعميـق أفـق النـص الدلالـي، وتوسـيع فضائـه الإيحائـي، وإدراك فاعليتهـا التأثيريـة. ووقـع اختيـاري علـى روايـة سـتائر العتمـة، لسـببين: الأول: كثـرة العلامـات السـيميائية المسـتثمرة فـي ألفاظهـا، وتراكيبهـا، وصورهـا. والثانـي: عـدم وجـود دراسـات – فـي حـدود علمـي- تعنـى بالعلامـة السـيميائية فـي روايـة سـتائر العتمـة.

وقـد تعـددت الدراسـات السـابقة التـي تناولـت موضـوع العلامـة السـيميائية، وجمعـت بيـن النظريـة والتطبيـق، نذكـر منهـا: دراسـة أعدهـا عـزوز علـي إسـماعيل، (2013) موسـومة بـ (عتبـات النـص فـي الروايـة العربيـة، دراسـة سـيميولوجية سـردية)، تنـاول فيهـا دراسـة العتبـات النصيـة، فـي نمـاذج مـن الروايـات العربيـة. ودراسـة أعدهـا رشـيد بـن مالـك، (2012)، موسـومة بـ (السـيميائيات السـردية)، التـي تحـدث فيهـا عـن مفهـوم السـيمياء، وتنـاول نمـاذج من الروايـات العربيـة. ودراسـة أعدهـا فيصـل النعيمـي، (2010)، موسـومة بـ (العلامـة والروايـة، دراسـة سـيميائية فـي ثلاثيـة أرض السـواد)، تحـدث فيهـا عـن أنظمـة العلامـات فـي ثلاثيـة عبـد الرحمـن منيـف. ودراسـة أعدهـا سـعيد بنكـراد، (2003)، موسـومة بـ (سـيمولوجية الشـخصيات السـردية)، خصصهـا لدراسـة سـيمولوجية الشـخصيات فـي روايـة الشـراع والعاصفـة لحنـا مينـه.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 142 2/8/17 10:06 AM

وتتميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة في كونها تسلط الضوء على علامات سيميائية مهمة في رواية من روايات الأسرى الفلسطينيين داخل سجون الاحتلال الصهيوني، لم تأخذ حقها من الدراسة السيميائية، مما أتاح أمام هذه الدراسة إمكانية الكشف عن علامات سيميائية جديدة في أدب الحركة الأسيرة في فلسطين، مكنت المتلقي من الوقوف على علامات زمانية، ومكانية، وجسدية، تتسم بعمق الدلالة، وقوة الإيحاء.

وإن المتأمل في رواية: (ستائر العتمة)، يلمس الحضور الفاعل للعلامات السيميائية، ويدرك أهميتها في تشكيل الفضاء الروائي. وتسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الفضاء الإيحائي للعلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة)، من خلال دراسة: العلامة الزمانية، والعلامة المكانية، والعلامة الجسدية.

أولاً: العلامة الزمانية:

أول ما يلفت النظر في رواية: (ستائر العتمة) عنوانها الذي يفصح – منذ البداية- عن زمانية الرواية، وتبدأ العلامة الزمانية – من العنوان- بإرسال ومضاتها السيميائية، التي تقود المتلقي نحو دلالة استباقية، توحي بسير الرواية صوب سيمياء الزمن، الذي يتحرك بكثافة في ثنايا النص الروائي، ويسهم بعمق في توجيه حركة السرد، ويمنح المتلقي مثيرات سيميائية تمكنه من استثمار فاعلية الاسترجاع، والاستباق، من أجل الكشف عن آلام الشخوص، وآمالها.

وتمثل العلامة الزمانية حيزاً مهماً في رواية: (ستائر العتمة)، ونشعر بأهميتها من عنوان الرواية، الذي اشتمل على علامة زمانية، وهي: (العتمة) التي يستشعر المتلقي من خلالها، بإحساس الكاتب بثقل الزمن المرتبط ارتباطاً قوياً بالمقاومة الفلسطينية، داخل السجون الصهيونية، والملتصق بجميع لحظات حياة السجين، فكل حركة من حركاته، أو سكنة من سكناته، لها ارتباط بالزمن ومتغيراته.

ويمكن معرفة العلامات الزمانية للرواية، من خلال الوقوف على المكونات الثقافية للشخصيات، ومعرفة لغتها، وعاداتها، وتقاليدها، فالعلامة الزمانية ركيزة أساسية في جوهر المعرفة الإنسانية، لارتباطها بثقافة الإنسان وخبراته، (ينظر، أيوب، 2001:37)، والفنون نتاج بشري، تتداخل فيها الثقافات والخبرات الإنسانية، والزمن يرتبط بالفنون ارتباطاً وثيقاً، (ينظر، مندولا، 1997:17)، والرواية ما هي إلا «تركيبة معقدة من قيم الزمن»(مندولا، 1997:75)، وبما أن اللغة- التي تتشكل منها فنون السرد- عبارة عن أفعال متتالية في حيز زماني، والخطاب الروائي تتحقق كينونته الفنية عن طريق اللغة، التي تعبر عن العلامات الزمانية للنص السردي. (ينظر، وورد، 1999:13).

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 143 2/8/17 10:06 AM

إن الإحساس بالعلامات الزمانية في الخطاب الروائي، لا يتشكل وفق التعاقب الزمني، بل وفق الحالات الوجدانية، التي تحمل دلالات خاصة في حياة الشخصية، (ينظر، هينكل، 1995:28)، أو وفق المعيار الداخلي السيكولوجي، الذي تقدر فيه العلامات الزمانية بصورة فردية ذاتية، دون أي معيار موضوعي، (ينظر، مندولا، 1997:137)، وهذا دفع غاستون باشلار إلى التمييز بين زمن الأنا (النفسي)، وبين زمن العالم، «فتارة يبدو زمن الأنا: يمشي بسرعة أكبر من سرعة زمن العالم، الأمر الذي يجعلنا نشعر بأن الزمن يمر بسرعة، وأن الحياة تضحك لنا، وأننا نشعر بالغبطة، وتارة تنعكس الآية، فيبدو زمن الأنا متأخراً عن زمن العالم». (باشلار، 1988:115-114).

والعلامة الزمانية ذات الأبعاد النفسية: لا ينتظم فيها الحدث حسب وقوعه زمانياً، بل حسب إحساس الشخوص به، ومن هنا: تتيح سيمياء الزمن النفسي للشخوص أن تبث انفعالاتها، وتعبر عن مواقفها الوجدانية، ليس كما هو متداول ومألوف، بل بطريقة تتناسب مع الحالة الانفعالية، لذا جاءت تعبيرات عامر عن العلامات الزمانية، في لحظات التحقيق مشتتة، ولا يربطها إلا الرابط الانفعالي.

وتتعلق العلامة الزمانية النفسية داخل رواية: (ستائر العتمة) بشخصيات الرواية، وهو زمن ذاتي يعبر عن انفعالات الشخوص وعواطفهم، وينظر إليه وفق رؤيتهم الذاتية، التي تعمد إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير، في لحظات الانتصار، (ينظر، مرتاض، 1998:205)، والزمن القصير إلى طويل في لحظات التحقيق.

ويستقي الكاتب علاماته الزمانية من واقع الاعتقال، ثم يعيد صياغتها ضمن أنساق سيميائية، موحية بطبيعة زمن الاعتقال، والتحقيق الذي أضفى عليه الكاتب صفات الطول، والثقل، والسواد، والبطء، وذلك من خلال وصفه الزمن خلف القضبان بأنه: «ساعات وأيام تجر ذيولها ببطء شديد، ثقيلة كالجبال، شاقة كقطع الصخر، أليمة كمن دهمته أزمة حادة، استقرت في أعماق صدره»، (الهودلي، 2003:92)، وهذا الوصف للعلامات الزمانية وصف سيميائي، ابتعد فيه الكاتب عن النقل الحرفي للعلامات الزمانية، وتجاوز مألوفيتها الدلالية، وأدخلها في مدارات إيحائية متعددة، توحي بعمق معاناته تحت أساليب التحقيق المادية والمعنوية.

ويتداخل الزمان مع المكان تداخلاً واضحاً في بداية الرواية، التي تبرز عملية رصد الهدف زمانياً ومكانياً، من قبل عناصر الخلية البطولية، وذلك عندما «أصبحت السيارة المرصودة في دائرة الهدف .. تهيأت الظروف على أكمل وجه .. تماماً كما هو مرسوم .. أرخى الليل ستائره السوداء.. اختفى من الوجود كل شيء.. لم يكن هناك شاهد إلا الله.. اختفى البشر، والشجر، والحجر، في ظلمة هذا الليل البهيم.. الصمت المطبق، لا ينال

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 144 2/8/17 10:06 AM

منـه شـيئاً سـوى زفيـر سـيارتين، وأنفاسـنا المتلاحقـة، وطرقـات القلـوب يعلـو وجيبهـا. وبعـد عـدة منعطفـات علـى طريـق نابلـس- رام الله، بسـطت لنـا الطريـق نفسـها... أصبـح التجـاوز ممكنـاً... أخرجنـا فوهـات بنادقنـا مـن النوافـذ... بندقيـة أطلـت برأسـها مـن نافـذة المقعـد المجـاور للسـائق... والثانيـة مـن النافـذة الخلفيـة». (الهودلـي، 2003:7).

اختـار الكاتـب زمـن تنفيـذ العمليـة البطوليـة قبـل الفجـر، ليعمـق مـن خلالـه مـدى الحـرص علـى نجـاح العمليـة، وقـد أسـهم اسـتثمار العلامـات السـيميائية فـي تعزيـز هـذا الحـرص، سـواء كان سـواد الليـل، وظلمتـه التـي اختفـى خلفهـا أفـراد المجموعـة، أو الصمـت المطبـق الـذي حقـق الهـدوء لـكل شـيء، مـا عـدا سـماع زفيـر السـيارتين، والأنفـاس المتلاحقـة لركابهـا، ممـا هيـأ الوقـت المناسـب لإخـراج فوهـات البنـادق مـن النوافـذ، وتصويبهـا تجـاه الهـدف. ويمثـل تصويـر المشـهد السـابق فضـاء خصبـاً للامتـدادات الزمانيـة والمكانيـة، وكشـفاً للتفاعـل السـيميائي بيـن زمـان الحـدث ومكانـه، وشـخوصه، وإبـرازاً للفضـاء السـيميائي فـي ذهـن المتلقـي، والـذي يتشـكل بتعـدد الأزمنـة، وتبايـن الأمكنـة، التـي لا يسـتغرق الكاتـب فـي وصـف كل تفاصيلهمـا بدقـة، بـل يعمـد إلـى التكثيـف، والتركيـز، تـاركاً أشـياء كثيـرة لخيـال المتلقـي، لإدراكهـا، محققـاً بذلـك رغبتـه فـي الإثـارة، والتشـويق، والإمتـاع، والتخييـل.

إن التلاعـب بالأنسـاق الزمانيـة الثلاثـة، واعتمـاد الحاضـر نقطـة انطـلاق نحـو المسـتقبل، ومـن ثـم العـودة إلـى الماضـي، لتنويـر المتلقـي بأنهـا عمليـة ناجحـة ومباركـة. ونجاحهـا جـاء نتيجـة الخبـرات الأمنيـة التـي حفظهـا قائـد العمليـة (عامـر) فـي حبسـته الأولـى، التـي قضـى فيهـا خمـس سـنوات خلـف قضبـان سـجون الاحتـلال، ولكنـه يتسـاءل عـن الخلـل الـذي أوقعـه، وأفـراد مجموعتـه فـي الاعتقـال، ويتمنـى أن يكـون الاعتقـال خمـس سـنوات، وليـس المؤبـد، (ينظـر، الهودلـي، 2003:9-8)، ويحمـل هـذا التداخـل للعلامـات الزمانيـة فـي طياتـه إشـارات سـيميائية، فالماضـي لـدى عامـر خبـرات أمنيـة، اكتسـبها مـن تجربـة اعتقاليـة سـابقة، أثَّـرت فـي إنجـاح العمليـة البطوليـة، وسـتؤثر فـي تغلبـه علـى أسـاليب التحقيـق.

إن جميـع العلامـات الزمانيـة، التـي عرضهـا عامـر عـن تجربتـه الاعتقاليـة الأولـى، هـي عبـارة عـن مشـاهد تلخيصيـة مونولوجيـة، تتمثـل فـي قولـه: «أيـن ذهبـت الخبـرات الأمنيـة التـي حفظتهـا فـي حبسـتي الطويلـة عـن ظهـر قلـب؟(...) أن تعـود رحلـة الأسـر والقيـد مـرة أخـرى، إنهـا طامـة كبـرى لـم أكـن أقدرهـا حـق قدرهـا، بدايـة الحبسـة الأولـى... أمـا وقـد عـددت خمـس سـنوات وراء القضبـان، بـكل سـاعاتها ودقائقهـا، وقـد كنـت أحسـب نفسـي أحدهـم، أو مـن أعلاهـم شـأناً... مـاذا أقـول لأمـك التـي حفيـت قدماهـا، وهـي تطـارد عليـك مـن سـجن إلـى آخـر؟ مـاذا تقـول لزوجتـك؟ لإخوتـك، لإخوانـك؟»، (الهودلـي، 2003:9-8)، ويعمـل التلخيـص المونولوجـي علـى تقديـم المشـاهد، والربـط بينهـا، بـل إنـه يزيـد مـن سـرعة السـرد، بشـكل يتناسـب مـع طبيعـة تسلسـل الأحـداث، والتسـاؤلات المتعـددة التـي طرحهـا عامـر علـى نفسـه:

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 145 2/8/17 10:06 AM

حـول كيفيـة وصولـه هـو وأفـراد مجموعتـه إلـى المعتقـل.

ومـن العلامـات الزمانيـة التـي اسـتثمرها الكاتـب فـي خطابـه السـردي: العلامـة الاسـترجاعية التـي يتذكـر فيهـا عامـر مـا حصـل لأمـه، وزوجتـه، وابنـه، «إنهـا صـورة لا أسـتطيع تصورهـا، أن أرى أمـي، وزوجتـي ثانيـة، تتقاسـمان وجهـي، الـذي يرسـم الحديـد عليـه مربعاتـه، أن أشـهد ولـدي، الـذي حوشـته بعـد خمـس سـنوات، وهـو يكبـر ويشـب، وأنـا لا ألمـس فيـه إلا أصابعـه الصغيـرة، وهـو يدسـها فـي ثقـوب شـبك الزيـارة، يـا للفظاعـة!! تعـود سـيرتك الأولـى يـا عامـر، كأنـك لـم تخلـق إلا للسـجون، يـا الله، عونـك ربـي علـى أن لا أتصـوّر شـبح هـذه الصـورة اللئيمـة، صـورة السـجن والسـجان، كل هـذا يترتـب علـى صمـودك هنـا»، (الهودلـي، 2003:10-9)، فالاسـترجاع مرتبـط بالتلخيـص، والمشـاهد، والتأمـلات، التـي توحـي بالـرؤى الاستشـرافية لمسـتقبل عامـر فـي التحقيـق، وتضـع المتلقـي أمـام مفارقـة زمنيـة، تعتمـد نمـط: «اسـتباق علـى اسـتذكار». (جينيـت، 1997:85).

وقـد اسـتثمر الكاتـب العلامـة الاسـترجاعية للمشـاهد الدلاليـة، بغيـة تضليـل المحققيـن، الذيـن وضعـوا عامـراً ونبيـلاً فـي زنزانـة واحـدة، تحـت المراقبـة السـرية، مـن خـلال أجهـزة التنصـت، واسـتطاع عامـر بخبرتـه إدراك ذلـك، وتفهـم نبيـل الأمـر، فأخـذ يسـترجع اسـترجاعاً داخليـاً، مـن خـلال الحـوار الداخلـي عـن ذكريـات الحيـاة الجامعيـة، ومـا بهـا مـن دراسـة، ولهـو، ولعـب، وحركـة، ونشـاط، وحـب، وقصـص عاطفيـة. وراح عامـر يسـترجع ذكرياتـه مـع طفلـه، وأسـهب فـي الحديـث عـن ضحكـه، ولعبـه، ونـوادره. وكان المحقـق (إيـلان)، وطاقـم التحقيـق، يسـتمعون لهـذا الحديـث الاسـترجاعي، مـن خـلال سـماعة (الانتركـم)، بصحبـة مسـجل يسـجل الـكلام بـكل حذافيـره، وكانـت صـدور المحققيـن تتلظـى غضبـاً، كلمـا اسـترجع عامـر ونبيـل موضوعـاً مـن المواضيـع البعيـدة عـن أهـداف المحققيـن. (ينظـر، الهودلـي، 2003:91-90).

وكذلـك وظـف عامـر العلامـة الاسـترجاعية الداخليـة، عنـد حديثـه عـن لقـاء الشـاب الأشـعث الأغبـر، الـذي دُفـع داخـل زنزانـة عامـر، حيـث بـدا علـى الشـاب آثـار التعذيـب، فاسـترجع معـه عامـر تجربـة العصافيـر فـي مـدة اعتقالـه السـابقة، وكيـف كانـوا يجيـدون فـن التمثيـل ببراعـة، وكيـف اسـتغلوا تديـن عامـر، ومثلـوا عليـه التديـن والتقـوى تمثيـلاً فـي غايـة الإتقـان، وكيـف صدقهـم عامـر، ودفـع ثمـن ذلـك فـي حبسـته الأولـى؟. (ينظـر، الهودلـي، 2003:20).

أمـا العلامـة الاسـترجاعية الخارجيـة التـي تتـم خـارج زمـن الحكايـة، وتتمثـل فـي اسـتحضار عامـر لموقـف النبـي- صلـى الله عليـه وسـلم- وصاحبـه أبـى بكـر، وهمـا فـي غـار جبـل ثـور، والمشـركون يقفـون علـى بـاب الغـار. وكلمـا اشـتدت الغمـة علـى عامـر ضاعـف إقبالـه علـى الله، واسـتدعى قـول النبـي- صلـى الله عليـه وسـلم- لأبـي بكـر:« يـا أبـا بكـر، مـا ظنـك باثنيـن، الله ثالثهما»(البخاري،1422هـ: مج5، ص4)، «ويترنـم عامـر: مـا ظنـك بواحـد، الله صاحبـه..

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 146 2/8/17 10:06 AM

الله وليه.. الله حافظه.. الله قريب منه، مجيب له.. الله معه، بكل ما تحمله من طلاقة القدرة، والرحمة، والحكمة». (الهودلي، 2003:99).

كما استحضر عامر شخصية بلال بن رباح، وصبره على المحن، بقوله: «أحمد الله، كلما اشتد ضغطهم عليَّ، اشتد إقبالي على الله، أخرج من مكنونات قلبي الإيمانية، وأوجه شرائعي إلى أرحم الراحمين، سرعان ما أعود بالثبات، وبرد اليقين، وطمأنينة الإيمان، إنها «أحدٌ، أحد» (البستي،1993: مج15، ص558) الخالدة، وصيحة بلال- رضي الله عنه- التي تفتت كل الصخور، التي تلقى على صدورنا، سواء كانت مادية أو نفسية». (الهودلي، 2003:66).

وكذلك لجأ الكاتب إلى العلامة الاستباقية للزمن، عندما جاء السرد على لسان عامر، من خلال المونولوج الداخلي، الذي تساءل فيه عن وجود زميليه: نبيل، وإبراهيم، «أين هم الآن؟ بين أيدي المحققين، أم أنهم رموا، كل واحد في زنزانته؟ أخشى ما أخشاه: أن يلعبوا بهم لعبتهم الخبيثة.. ويحصلون منهم على معلومات، قد تكون عامة، وغير مفيدة، إلا أنهم يوظفونها عند الآخر.. ويوهمونه بأنهم يعرفون كل شيء، ولا داعي للتستر، وإخفاء القصة على حد تعبيرهم». (الهودلي، 2003:13).

لجأ الكاتب أيضاً إلى استثمار علامة الحذف، من أجل إيجاد مادة سيميائية خصبة للفضاء المكاني، وذلك بتجنب الراوي ذكر ألفاظ بعينها، فيعمد إلى استخدام علامة الحذف، موحياً لذلك بالفراغ المنقط، وذلك إما بعداً عن التكرار، أو تجنباً لذكر أشياء، لخصوصيتها الأمنية، أو الأخلاقية. وهذا التجنب لذكر لحظات سردية يعمل على تسريع وتيرة السرد، ويتيح المجال واسعاً أمام المتلقي لتوقع المسكوت عنه، على نحو ما يتجلى في الحوار الذي دار بين عامر وإبراهيم في ساحات السجن: (الهودلي، 2003:159).

همس عامر في أذن إبراهيم:

- متي ستقيِّم الأوضاع يا إبراهيم
- متى تشاء .. أنا جاهز
- سمعت من نبيل بالأمس
- بالنسبة لي، أنا كتبت مذكراتي ... كتبت كل ما جرى لي في التحقيق، بأدق التفاصيل
- رائع ، هل بإمكاني ...
- بكل تأكيد.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 147 2/8/17 10:06 AM

اعتمد السارد سيمياء الحذف، لإيجاد فضاء نصي ينشط خيال المتلقي، ويحدث لديه فاعلية الإثارة والتشويق، لمعرفة المسكوت عنه، ويتيح أمامه إمكانية المشاركة الإبداعية، من خلال ملء الفراغ في المتن الروائي، بما ينسجم مع السياق الدلالي للنص.

وكذلك وظف الراوي سيمياء الحذف والتنقيط، تجنباً لذكر شتائم المحقق، الذي طلب من عامر أن يتكلم، ويجيب عن الأسئلة وقال له: «تكلم يا ابن ...،» وتعمد السارد توظيف علامة الحذف، لتجنب ذكر ما تأنفه النفس الإنسانية، وتترفع عنه الذائقة الأدبية.

إن استثمار الكاتب لسيمياء الحذف وسع من فضاء العلامة الزمانية، بانفتاحها على فضاءات دلالية وجمالية متعددة، ووسع من أفق التوقع لدى المتلقي؛ إذ «إن للحضور دلالته دون شك، لكن للغياب أيضاً دلالته، وإن دلالة الغياب قد تكون أكثر جوهرية، وتجسيداً لبنية الثقافة، من دلالة الحضور» (أبو ديب، 1985:75)، فالغياب الكتابي، أو الصوتي، الناتج عن علامات الحذف، فيه إعمال للفكر، وتنشيط للخيال، يمكن المتلقي من تصور المسكوت عنه، لذلك فإن «الغياب لا يزيد الاكتمال البنائي للنص إلا تأكيداً»، (كريسطيفا، 1997:39)، للمعنى وتعميقاً للدلالة.

ثانياً: العلامة المكانية:

للعلامة المكانية أهمية كبرى في الخطاب الروائي، حيث تشغل حيزاً كبيراً في بنيته السردية، وتتميز بوصفها المكوِّن الذي يشكل- مع بقية العناصر- فضاء الرواية، فالعلامات الزمانية «لا تمنح دلالتها إلا في المكان، والمكان لا يدرك إلا في سياق الزمان، وبينهما يتنامى العامل المأخوذ من النص الروائي في بعديه: المادي والمعنوي»، (النعيمي، 2010:111)، وبذلك يمتد الفضاء، ليشمل مجموع العلامات المكانية، وعلاقتها القائمة مع باقي مكونات العمل الروائي، وقد عمد ميخائيل باختين إلى ربط العلامات الزمانية والمكانية، بعلاقة جدلية في الفضاء الزماني. (ينظر، باختين، 1990:220).

وقد حظيت العلامات المكانية بدور مهم في النص الروائي، وتكمن أهميتها في قدرتها على الربط بين مكونات البناء الروائي، فهي الأرضية المشتركة التي تتحرك فيها الشخصيات، وتتطور الأحداث، وتنمو البنية السردية. ونجد العلامات المكانية متفاعلة تفاعلاً كبيراً مع الشخصيات ونموها، والأحداث وتطورها، متجاوزة بذلك قيمتها كإطار جغرافي، لتدخل في علاقات جدلية متنامية مع الشخصيات والأحداث، ويكون سيمياء المكان وسيلة لرسم طبيعة الشخصيات التي تعيش فيه، والإيحاء بأفكارها وتطلعاتها، ومعاناتها، وبهذا يصبح لسيمياء المكان أبعادها الدلالية والجمالية، التي تحدد طباع الشخصيات، وتكشف عن خباياها.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 148 2/8/17 10:06 AM

والعلامات المكانية في رواية: (ستائر العتمة) علامات حقيقية، عايشها الكاتب، بصورة واقعية في سجون الاحتلال، وهي واقعة في نطاق التجربة الفنية، والمكان الروائي «لا يعيش على شكل صور وحسب، بل يعيش في داخل جهازنا العصبي، كمجموعة من ردود الفعل، فلو عدنا إليه – حتى في الظلام- فلسوف نعرف طريقنا إلى داخله، ومثل هذا المكان يبلغ حداً من القوة، ويجعل القارئ يتوقف عن القراءة، ليستعيد ذكرى مكانه الخاص»، (هلسا، 1981:224)، ويفتح المجال واسعاً أمام آفاق من التوقعات، حول نهاية موقف من المواقف المتعلقة بالعلامات المكانية، المنتشرة في ثنايا العمل الروائي، التي تنشط خيال المتلقي، وتحقق لديه فاعلية الإثارة والتشويق.

وقد اتخذت العلامات المكانية في رواية: (ستائر العتمة) أشكالاً عدة، فنراها تتسع تارة، وتضيق أخرى، وتفتح تارة، وتغلق أخرى، والمكان إذا كان مغلقاً ارتبط بمعاني الضيق والحرمان، كالزنزانة، والسجن، ومكاتب التحقيق، وإذا اتسع كان رمزاً لانتهاء التحقيق، والخروج من الزنازين، ومكاتب التحقيق، إلى ساحات السجن، التي ينفتح فيها السجين على غيره من السجناء، وغالباً ما توجد علاقة بين ضيق المكان وانغلاقه، وبين انفتاح المكان واتساعه.

إن التنوع الحاصل في العلامات المكانية، بين سجن عسقلان، والمسكوبية، ومجدو، والزنازين، والمسالخ، وأماكن الشبح، والتحقيق، (ينظر، الهودلي، 2003:130 وما بعدها)، يحيل قطعاً إلى تعدد أساليب التحقيق، وتنوعها، مما يضفي على سيمياء العلامة المكانية الحيوية والتنوع، ويعمل على تحريكها في أكثر من اتجاه، وعلى أكثر من مستوى، ومن ثم تبئيرها في علامة مكانية واحدة هي الزنزانة، فضلاً عن الحركة، والتنوع، والحيوية التي تشكلت من جراء العلاقات المتشابكة، بين الأمكنة المختلفة التي تعمل على تشكيل فضاءات سيميائية متباينة، وفق تباين أنساقها الثقافية والدلالية.

فالسجن مكان مغلق بزنازينه، وغرف تحقيقه، ومسالخ تعذيبه، وهو كمكان لا يتغير، ولكن علاقات المعتقلين به هي التي تتغير، ويظل السجن بكل مكوناته المادية والمعنوية، وتتغلب إرادة السجين على إرادة السجان، ويتحول السجن من مكان للقهر والمعاناة والموت، إلى قلعة من قلاع الصمود والمقاومة، ومدرسة للتثوير والتنوير. وهذه المعاني تؤكدها صورة السجن في الرواية، التي ظلت في بعدها الواقعي، حيث ذكرت أماكن السجون، وأسماءها الحقيقية: (مجدو، وعسقلان، والمسكوبية)، وذكرت الألفاظ المتداولة داخل السجون: (عصفور، والشبح، والبرش، والفورة)، وبذلك «أصبح المكان يمنح ملامحه للإنسان من جهة، وللغة من جهة أخرى»، (ياغي، 1999:111)، وبات للسجون علاماتها السيميائية الخاصة التي تعبر عن بيئتها، فتكشف عن مجريات الأحداث، وتطور المواقف داخل السجن.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 149 2/8/17 10:06 AM

وسيمياء المكان لم تكن واحدة عند كل الشخوص، فقد يكون المكان للراحة الجسدية، والنفسية، يشعر فيه صاحبه بالطمأنينة والاستقرار، كما هو الحال عند العصافير، وقد يكون المكان للمعاناة كما هو في المسلخ، وقد يستثمره المعتقل في الذكر والتأمل، كما فعل عامر، (ينظر، الهودلي، 12-13:2003)، وبذلك تتباين نظرة الشخصيات للمكان حسب مستوياتها الثقافية، وحالاتها الانفعالية، مما يجعلها ترى المكان الواحد بأكثر من رؤية، وهذا ما حدث مع عامر في أماكن اعتقاله، والتحقيق معه.

وقد وظف الكاتب اللون، ليس للتعبير عن الشكل الخارجي للمكان، إنما للإيحاء بما هو داخلي يعتلج في نفوس شخوصه، كما هو واضح في حديث عامر لنبيل، عن مشهد متكرر معه في التحقيق، «استلموني منذ لحظة الاعتقال الأولى، تكالبوا عليَّ ليل نهار، كانت الأيام الأولى عصيبة، إذ حرمت فيها من النوم .. تواصل الليل والنهار، وهم يتناوبون عليَّ، بهدف إرهاقي، وإيصالي إلى حالة من الانهيار النفسي، تمكنهم من اقتناص بعض الكلمات.. وكانوا أحياناً يجتمعون دفعة واحدة... يطلقون تهديداتهم، ويتوعدونني بالتعذيب العسكري، وإخراج كل ما لديهم من عنف، وعذاب. ثم بعد ذلك أخذوا يتركونني وحدي في الزنزانة السوداء، لأيام طويلة، وأنا أنتظر، وأترقب خطوتهم القادمة، إهمال متعمد يحرق أعصابي، ويضغط على أنفاسي». (الهودلي، 151:2003).

تبرز قدرة الكاتب في استثمار سيمياء اللون الأسود، لجعل ما هو داخلي في نفس عامر ينعكس على ما هو خارجي في الزنزانة، ويعني هذا أن عامراً عاش معاناة التحقيق الجسدية والنفسية، فجاء اللون الأسود، ليكون تجسيداً مأساوياً لتلك المعاناة، التي عاشها عامر في التحقيق، فاللون الأسود ارتبط بحجم المعاناة، التي يعيشها عامر خلف القضبان، وأوحى بسوداوية الواقع الاحتلالي، والكاتب بذلك لم يخرج باللون الأسود عن دلالته التراثية المعروفة، فكان تأكيداً وتواصلاً لما هو متوارث ومعروف.

وإذا كان السجان يحرص كل الحرص، على نشر اللون الأسود في عقول المعتقلين ووجدانهم، فإن المعتقلين يقاومون اللون الأسود بكل إيحاءاته الحزينة، والكئيبة، وذلك من خلال استبداله باللون الأخضر، الذي يثير لدى إبراهيم جملة من الذكريات، فيقول: «كانت أواسط نيسان أجمل أيام السنة، حوَّل هذا السجن.. الأرض تخرج كسوتها الخضراء، والبرتقال تبتسم براعمه بزهورها، التي تقيم حفلات زفافها، وتستعد لولادة أجنتها.. ونسيم البحر القريب يداعب الكائنات، ويبث شجون البحر بأعذب الألحان.. والأسرى القابعون خلف الحديد، وقهر السجان، لا ينالهم من كل هذا إلا أن يسرح أحدهم بخياله، أو يشنِّف أنفه لبعض الأريج المتسلل». (الهودلي، 158-159:2003).

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 150 2/8/17 10:06 AM

فاللون الأخضر جاء حاملاً لدلالة واحدة، هي دلالة العطاء، والخصب، والنماء، ومجسداً لسيمياء المشهد بعيداً عن الزنزانة السوداء، وموحياً بإرادة الحياة، والإصرار على الأمل، رغم سوداوية الواقع داخل السجون. ويؤكد الكاتب على رسوخ اللون الأخضر في وجدان المعتقل، وسيطرته على أحاسيسه، بتعزيزه له بألوان زهر البرتقال وأريجه، ونسيم البحر، الذي يتسلل عبر قضبان السجن، ليثير طائفة من الذكريات لدى المعتقلين، ويكشف عن التحوُّل النفسي لديهم، فقد جاء اللون الأخضر، الذي يوحي بالحياة ويبعث الأمل في وجدان المعتقلين، ليقابل اللون الأسود لون الحزن، والكآبة، والتشاؤم، ويواجه الموت الذي أراده المحتل أن يتسلل إلى قلوب المعتقلين.

فالمستويات السيميائية للتوظيف اللوني للوحة الأحداث في السجون الصهيونية، أجاد الكاتب توظيف دلالاتها، واستثمار طاقاتها، بما يتناسب مع طبيعة المكان، والمواقف، والأحداث التي تجري فيه، وينسجم مع طبيعة الأفكار، والعواطف، والانفعالات التي يريد التعبير عنها، والتأثير في المتلقي من خلال تكثيف المعنى، وإثارة الإيحاء، لأن دوال الألوان- غالباً- تؤثر تأثيراً بالغاً، في إيجاد فضاء إيحائي يوازي النص السردي القائم بالفعل؛ إذ هي تحيل بالضرورة على مدلولات وجدانية غائبة عن النص، وهذه الإحالة تقتضي التحرك في الفضاء النصي للرواية، للبحث عن آفاقها، واستدعائها إلى مجال التلقي، ليكتمل وجود النص بالفعل، وبالقوة على صعيد واحد. (ينظر، عبد المطلب، 1995:154)، ومتابعة مثل هذه الإحالات يحتاج قدراً واسعاً من الرؤية، والإدراك، لاستيعاب الآفاق الدلالية، والإشعاعية، والجمالية، التي تفتح الفضاء النصي على حقول سيميائية واسعة.

ويضفي الكاتب على المكان سيمياء الرائحة، التي تتبدل من زنزانة إلى أخرى، ومن معتقل إلى آخر، في رحلة طويلة لا تعرف الاستقرار. فالمكان تارة معبق برائحة نتنة، كما هو في الزنزانة التي وجد عامر نفسه فيها، بعد جولات من التحقيق المتواصل، استمرت أياماً دون نوم، فهي ضيقة، شديدة الظلام، رائحتها نتنة، بسبب الرطوبة، ووجود سطلين فيها، الأول: للشرب، والثاني: للبول، تنبعث منه رائحة كريهة، إضافة إلى رائحة الحمام الذي دفع الشرطي عامراً إليه، وطلب منه- خلال خمس دقائق- أن يقضي حاجته، ويستحم، فوجد عامر الحمام فيه صابون، ودش ماء فاتر، ودورة مياه فاضت نجاستها بسخاء، وقد أثارت الرائحة العفنة الكريهة الحساسية في صدر عامر. (ينظر، الهودلي، 2003:77-76-63).

وتتبدل رائحة المكان خارج الزنازين، حيث نجدها قد تغيرت في الساحة التي تحيط بها أقسام السجن، على ارتفاع طابقين شاهقين من كل جانب، وسطح الساحة مسقوف بقضبان الحديد سقفاً محكماً، يعيق حركة الهواء المتسلل، حيث كان أريج حقول البرتقال يصر على ولوج هذه الساحة، لينعش الصدور المكبوتة. وكذلك نسيم البحر القريب يداعب

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 151 2/8/17 10:06 AM

الكائنات، ويبث شجون البحر بأعذب الألحان. والأسرى القابعون خلف القضبان: ينعش بعض الأريج المتسلل صدورهم، ويطلق العنان لخيالهم، ليعيشوا ذاكرة المكان الفلسطيني خارج سجون الاحتلال. (ينظر، الهودلي، 2003:158).

ونلمس في اللوحة التي رسمها الكاتب للمكان سيمياء الصوت، التي انتشرت في جنباته، وسيطرت عليه أصواتُ السجانين، والمحققين، والعصافير، وصراخُ المعتقلين، وأناتُهم، وأحاديثُهم، وضحكاتُ عامر، وغناؤه مع نبيل، وصوتُ أبواب الزنازين، ومكاتب التحقيق، وخشخشةُ المفاتيح، وصوتُ جلبة عجلات السيارات. (ينظر، الهودلي، 2003:8 وما بعدها).

وفي محاولة من المحقق: (شلومو) للتأثير في صمود عامر أسمعه صوت إيلان وهو يحقق مع فتاة فلسطينية، حول علاقتها بالأعمال العسكرية، وبصوت عالٍ يهددها المحقق، على مسامع عامر، بقوله: «أتدرين ماذا سنفعل معك إن لم تقولي كل ما عندك؟ أتنسين أنك بنت، وقد أصبحتِ بين أيدينا..؟ بإمكاننا أن نفعل ما نشاء»، (الهودلي، 2003:81)، وعامر يسمع التحقيق مع الفتاة في المكتب المجاور، ولكنه يشك في صحة ما سمع، ويعدُّه من قبيل الحرب النفسية الموجهة ضده، ولا يستبعد هذا العمل المنحط عن المحقق.

ثالثاً: العلامة الجسدية:

تمثل العلامة الجسدية مثيراً سيميائياً، يحقق فاعلية التواصل، ويحمل في داخله أنساقاً من العلامات السيميائية، التي تشكل لغة تواصلية قائمة بذاتها، تفوق قوى التواصل الموجودة في العلامات اللسانية، ويأتي هذا التفوق للعلامة، من كونها أكثر قدرة على التعبير عن الحالات الانفعالية، وأفصح في بيان ما تخفيه الذات، أو ما تريد العلامة الجسدية أن توحي به للآخرين، لأنها تختزن مجموعة من العلامات، والإشارات المشفرة، التي يتغير معناها بحسب تغير علامات الجسد، وما توحي به من مثيرات سيميائية، تتجدد حسب السياق التواصلي الذي توضع فيه. (ينظر، محمود، 2014:147، كذلك، راغب، 1998:54).

وتشكل العلامات الجسدية مدخلاً للولوج في أغوار الذات، لأن العلامات الجسديةَ وسائلُ تعبيريةٌ، يستثمرها الإنسان، من أجل التعبير عن مواقفه الفكرية، وحالاته الانفعالية، ويتجلى ذلك في تعابير الوجه، ولون البشرة، والعينين، والأسنان، والشعر، وحركات اليدين، وشكل الجلوس، والوقوف، والمشي، والطول، والقصر، والبدانة، والنحافة، ونبرة الصوت، وغير ذلك من العلامات الجسدية، التي يمكن أن تكشف عن سيمياء العلامات الجسدية، التي تثري النص، وتمنحه فضاءً دلالياً واسعاً.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 152 2/8/17 10:06 AM

ولكي يكون المبدع أكثر استثماراً للعلامة الجسدية، والمتلقي أعمق إدراكاً لفاعليتها، لابد أن يُنظر إليها على أنها شفرات سيميائية، تمتلك الثراء الدلالي، والفضاء الإيحائي، وأن يجيد المبدع توظيفها، داخل العملية الإبداعية، مما يدعو إلى «التخلي عن التقاليد، واكتشاف شفرات كانت قد تأصلت، إلى حد أننا لم نعد نراها، بل نظن أننا نرى من خلال شفافيتها الواقع نفسه. ولا يكون هذا الإجراء مهماً وقوياً في مكان، مثلما يكون في إدراكنا لأجسادنا، فنحن نظن أننا نعرف أنفسنا مباشرة، ولكنّ كلاً من الـ (نحن) التي تعرف، والـ (نفس) التي تعرف، تتخللها الشفرات بعمق، أي أنها مشفرات ثقافياً». (شولز، 1994:217).

وقد شكلت العلامة الجسدية ملمحاً بارزاً في رواية: (ستائر العتمة)، مما يستدعي التوقف عندها، وبيان تجلياتها السيميائية، فهي لغة إيمائية، ونظام من العلامات منتج للدلالة، ومنشئ لشفرات تواصلية تعكس اختلافات ثقافية، وتحمل في طياتها رموزاً متشابهة الشكل، مختلفة الدلالة، «فالجسد بمجرد ما تمتلكه اللغة والصورة، يكف عن أن يكون جسداً واقعياً، ليغدو جسداً ثقافياً بالدرجة الأولى. ومتى ما مس الوصف الجسد، فإنه يتعامل معه انطلاقاً من مخزونه الفكري، وذاكرة اللغة، وقيمها وأخلاقها». (الزاهي، 1998:113-112).

وقد لجأ الكاتب في سرده، إلى توظيف العلامات السيميائية للغة الجسد التعبيرية، لتعميق المعاني في وجدان المتلقي، ومنحها بعداً إيحائياً واسعاً، يكشف التحولات الجسدية التي تحدث للمعتقل، وتجلى ذلك في تحول العلامات الجسدية، التي طرأت على عامر ونبيل، بعد مرور اثنين وعشرين يوماً من الاعتقال والتعذيب، حيث التقيا في زنزانة واحدة، و»وقع الاثنان في عناق حار، لم يستطع عامر التخفيف من حدته.. رأى كل منهما نفسه في الآخر، بدا نبيل لعامر منهكاً، شاحباً .. علَّمت الأيام السابقة على وجهه، وكأنها سنين طويلة من سني الشيخوخة، كسا الصفار الباهت وجهه الأبيض، وبدت عليه علامات الذل والانكسار .. مال رأسه قليلاً باتجاه صدره، وكانت عيناه لا تقوى على إمعان النظر، في هذا الظلام الصاخب. وبدا عامر لنبيل وقد أصابه التعب والإرهاق، إلا أن عينيه ما زالتا تلمع فيهما الإرادة القوية، والتصميم الحاد.. سمرة وجهه غابت في الظلام.. كان مرفوع الرأس، يحدث نبيل بكل ما أوتي من قوة، وكأنه يحاول قراءة ما يجول في صدره.. كانت راحة يده التي تمسك بكتف نبيل بكل حب واشتياق». (الهودلي، 2003:89).

كشفت العلامات الجسدية في المشهد السردي، عمق معاناة عامر ونبيل، تحت وطأة الاعتقال، وقسوة التحقيق، ورسمت ملامح المعاناة من خلال العلامات الجسدية التي بدت عليهما، في: (النحافة، والإنهاك، وشحوب الوجه، والشيخوخة، واصفرار الوجه وبياضه، وميلان الرأس ورفعه، ولمعان العينين، وراحة يديه)، وما توحي به هذه العلامات من حمولات سيميائية، تبرز صمود المعتقل، وتحديه للسجان.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 153 2/8/17 10:06 AM

وقد عمد الكاتب إلى الكشف عن العلامات المادية، والنفسية، والاجتماعية لشخوصه، لإضفاء ملامح حقيقية عليها، وإبراز تلقائية العلامة. وقد جسد البعد المادي الشكلي لشخصية عامر، من خلال وصفها يوم خروجها من السجن، في الحبسة الأولى «كانت أياماً عصيبة من العنف والشبح، سبعون يوماً، خرجتُ منها بهيكل عظمي، نحل عنه الشحم واللحم، وقد اشتدت عليَّ آلام ظهري، وتخلخلت فقرات رقبتي من أثر الشبح.. أما هذه المرة: فها أنت يا عامر تضع رجلاً على رجل، وترتع وحدك في هذه الزنزانة ..»، (الهودلي، 2003:14). ولم يقف الوصف عند معاناة عامر داخل السجن، بل تجاوز ذلك، ليتحدث عن صموده، وتحديه للمحقق وأساليبه، فصور لنا كيف « تقلص وجه عامر، وقرر أن يعلن التحدي.. قرر أن ينتقل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم»، (الهودلي، 2003:37). وهذا فيه إشارة إلى صلابة عامر وقوته، وإضاءة على قدراته في التغلب على المحقق وأساليبه، التي اكتسبها من خبراته في جولات التحقيق.

وامتد وصف الكاتب للبعد المادي الشكلي للعلامة الجسدية، إلى شخصية العصفور، الذي وصف بأنه «كان أشعث أغبر، تبدو عليه آثار التعذيب.. تستطيع أن تقدر أن عمره في الزنازين يزيد على العشرين يوماً يتقطع وجهه ألماً وحزناً، رغم أنه في ريعان شبابه، إلا أنه بدا كهلاً ناهز الأربعين»، (الهودلي، 2003:14). ونحن نعلم ما لهذا البعد المادي الشكلي لشخصية العصفور، من إشارات إلى تصنعه التعذيب والمعاناة، للتأثير في نفسية السجين، وإحداث نوع من الاطمئنان، ليوقعه في فخ الاعتراف.

وكذلك وصف الكاتب البعد المادي الشكلي، للعلامات الجسدية لشخصية المحقق: (كابتن داني)، فتحدث عن ابتسامته الصفراء، التي نشرها على وجهه الأبرص، وأنفه المدبب، وعيونه الخضراء، وصلعته التي توحي بتجاوزه سن الأربعين، وطوله، ونحافته، إضافة إلى هدوئه، وأسلوبه الناعم في المعاملة، (ينظر، الهودلي، 2003:36)، ونحن ندرك أهمية الإشارة إلى الابتسامة، ووصفها بالصفراء، والإشارة إلى أسلوبه بأنه هادئ، وناعم، ذلك للإيحاء بقدراته في كسب نفسية المعتقل، واستدراجه، للاعتراف بهدوء، بعيداً عن أساليب التحقيق القديمة، التي كانت تنتزع الاعتراف من المعتقل بالعنف.

وأما البعد النفسي للعلامة الجسدية، فقد وظفه الكاتب، لإضفاء صفة الصمود والتحدي، على شخصية عامر، الذي ابتعد عن الثرثرة مع العصفور، الذي اقتحم عليه خلوته، واكتفى بمراقبته، وتفسير تصرفاته، والتزم الصمت، حرصاً وسلامة، رغم ثقل العزلة وقساوتها، فقد تغلب عامر عليها بالصلاة، والتسبيح، والذكر، الذي يزيد من ثباته، وثقته بنفسه، وبالتالي: تغلبت إرادة السجين على السجان، وهذا ما أبداه عامر بتحديه للسجانين، بقوله: «يا لكم من أغبياء.. إنها خلوة أخلو بها مع ربي ..أتنقل من فكرة إلى أخرى، وأقلب دفاتري القديمة والحديثة.. صدقاً، الزنزانة كانت قديماً خانقة للنفس والروح.. يأتون

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 154 2/8/17 10:06 AM

بـك مـن بعيـد، حيـث فضـاء الحريـة الواسـع، ويحشـرونك بيـن جـدران ضاغطـة وخانقـة.. هـذا قديمـاً، أمـا اليـوم: فهـي متعـة روحيـة، أنفـع بهـا قلبـي، وأدخـل بهـا ميـدان فكـري، وهاهـم يفصلونهـا حسـبما أريـد.. فحتـى يتسـنى لـي تركيـز الفكـرة، وتجميـع مشـاعر القلـب، لابُـدّ مـن غلـق النوافـذ، فـلا يشـرد البصـر بعيـداً، ولا يتشـتت الذهـن.. أربعـة جـدران دون أيـة نافـذة .. استعاضوا عنهـا بمروحـة فـي السـقف، يشـغلونها حسـب أهوائهـم الفاسـدة.. ثـم تجـد فـي إحـدى زواياه مقعداً لقضاء الحاجة، مع سطل ماء». (الهودلي، 12-13:2003).

ولعـل العلامـات النفسـية لشـخصية المعتقـل، التـي حـرص الكاتـب علـى إبرازهـا، والمتمثلـة فـي الصمـت، وعـدم الثرثـرة، والاسـتفادة مـن العـزل الانفـرادي: بالذكـر، والصـلاة، والتسـبيح، والتأمـل، والتفكـر، والمراجعـة، وإبـداء القـوة فـي اتخـاذ قـرار المواجهـة، والانتقـال مـن حالـة الدفـاع إلـى حالـة الهجـوم. وهـذه العلامـات النفسـية هـي مشـكِّلات شـخصية البطـل، الـذي لا يعـرف الانكسـار، ولا يعـرف طريـق التـردد، ولا تحركـه ردات الفعـل العشـوائية، بـل ينطلـق مـن تفكيـر، ووعـي، وقناعـة.

وقـد كشـف الكاتـب عـن الأبعـاد النفسـية لشـخوصه، مـن خـلال سـيمياء اللـون، التـي تجلـت فـي لغـة الجسـد التعبيريـة، حيـث وصفـت ابتسـامات المحققيـن، وقهقهاتهـم التـي بـدت مـن خلالهـا نواجذهـم، وأنيابهـم، بأنهـا صفـراء، (ينظـر، الهودلـي، 36-55:2003)، وهـذا التوظيـف اللونـي يحمـل بعـداً سـيميائياً كنائيـاً، دالاً علـى الخبـث، والحقـد، والمـوت، ينسـجم مـع سـواد وجـه المحقـق، الـذي وصـف بالشـيطان الأسـود، (ينظـر، الهودلـي، 96-98:2003)، ويتعلـق بسـياق المعانـاة والمـوت الـذي تحملـه أسـاليب التحقيـق للمعتقـل.

وإذا كانـت لغـة الجسـد للمحققيـن الصهاينـة، المتمثلـة فـي الابتسـامات فـي وجـه المعتقـل، قـد وصفـت بالاصفـرار الـذي يشـي بالمعانـاة والمـوت، فإن لغـة الجسـد للمعتقليـن، المتمثلة بابتسـامة عامـر فـي وجـه نبيـل، كانـت حانيـة، خففـت مـن آلام نبيـل، (ينظـر، الهودلـي، 148:2003)، وقـد أسـهم سـيمياء اللـون للغـة الجسـد فـي منـح المشـاهد السـردية أبعـاداً دراميـة، عمقـت مـن الحمـولات الدلاليـة للنـص، ومنحـت المتلقـي صـوراً مؤلمـة لأسـاليب التحقيـق.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 155 2/8/17 10:06 AM

الخاتمة:

حاولتُ من خلال دراسة رواية: (ستائر العتمة) بآليات المنهج الوصفي التحليلي الإجرائية، أن أكشف عن بعض جماليات الخطاب الروائي، من خلال فك شفرة العلامات السيميائية، المتمثلة في: العلامات الزمانية، والمكانية، والجسدية، وتوصلت إلى بعض النتائج، أجملها فيما يلي:

- شكلت العلامة الزمانية ملمحاً بارزاً في رواية: (ستائر العتمة)، حيث تنقلت الرواية عبر علامات زمانية مختلفة من تاريخ النضال الفلسطيني، ومن الجدير بالذكر: أن العلامات الزمانية لها خصوصية، وحضور في رواية المعتقل، بل تكاد تتربع على قمة السرد الروائي، مشيرة إلى أهمية هذه العلامات، ممثلة بالعنوان، وهو يسير في ثنائية غير متوازنة، يطغى فيها الحاضر على الماضي، وللحاضر فيها بعدان: أحدهما قبل أوسلو، وثانيهما بعد أوسلو.

- عبرت العلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة) عن تجربة نضالية، عاشها الكاتب في أقبية التحقيق الصهيوني، مما أدى إلى تداخل الممارسة الإبداعية مع التجارب السياسية في وجدان الكاتب، بشكل يصعب فيه فصل السياسة عن الأدب، مما حول عمله الروائي إلى تجربة فنية صادقة، تتكىء على الواقع المقاوم، وتحافظ على الخصوصية السيميائية للنص الروائي.

- كشفت العلامات السيميائية في رواية: (ستائر العتمة) عن الانفتاح الحاصل بين الأجناس الأدبية والأنواع الفنية، وذلك باستثمار العمل الروائي للتقانات السردية، والدرامية، والتصويرية، وتعدد الأصوات، والألوان، والروائح، وتداخلها، وتنوع الأساليب وتباينها، والتي تجلت بفاعلية في المثيرات السيميائية المنتشرة في ثنايا الرواية. وهذه الخاصية الانفتاحية للعلامة الروائية، جعلت منها علامة تتسم بالتوالد الدلالي، والثراء الإيحائي.

- أجاد الكاتب اختيار العلامات المكانية، والزمانية، التي تتناسب مع مستويات العلامات الجسدية، والنفسية، والاجتماعية لشخوصه، ونجح في استثمار تقانات السرد القصصي، لإبراز جماليات العلامات السيميائية، التي كشفت بشكل فاعل عن ترسيخ ثقافة الصمود والمقاومة، لذلك نجد التفاعل بين العلامات الزمانية، والمكانية، والجسدية، مجسداً لقوة العلاقة القائمة بينها على التأثير والتأثر المتبادل، الذي يبرز التطور الدلالي للعلامات السيميائية، في النص الروائي.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 156 2/8/17 10:06 AM

- إن حسن استثمار الكاتب للعلامات السيميائية المعتمدة على: الحركة، والصوت، واللون، والرائحة، وتوظيفها توظيفاً فنياً في تشكيله للبناء السردي، أبرز عمق امتلاك الكاتب لأدوات رسم عناصر البناء الروائي، وحسن توظيفه لها، وكشف عن قوة تغلغله في أمكنته، حيث وصف مكوناتها، وأضاء جوانبها، وأثرى شخوصها وأحداثها، مما مكنه من إيجاد الطاقات الإيحائية، والجمالية، والبنائية في المتن الروائي، التي عززت من فاعلية تلقي المثيرات السيميائية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أبو ديب، كمال، (1985): الأدب والأيديولوجيا، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أيوب، محمد، (2001): الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، ط1، القاهرة، دار سندباد للنشر والتوزيع.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (1964): تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط)،القاهرة، دار القومية العربية للطباعة.

الأندلسي، ابن عبد ربه (1979): ديوان ابن عبد ربه، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1،بيروت، مؤسسة الرسالة.

البخاري، محمد ابن اسماعيل (1422هـ): صحيح الإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1،بيروت، دار طوق النجاة.

البستي، محمد بن حبان الدارمي (1993): صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، ط2،بيروت، مؤسسة الرسالة.

باشلار، غاستون، (1988): جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط2،الجزائر، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع.

باختين، ميخائيل، (1990): أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق (د.ط)،دمشق، منشورات وزارة الثقافة.

الجاحظ، عمر بن بحر،(2008): البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي، (د.ط)،بيروت، المكتبة العصرية.

جينيت، جيرار، (1997): خطاب الحكاية بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرين، ط2،القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

حمودة، عبد العزيز، (1978): المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك،الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 232.

دي سوسير، فرناند، (1985): دروس في الألسنية العامة، تعريب: صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، (د.ط)، ، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب.

داسكال، مارسيلو، (1987): الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة: حميد الحمداني وآخرين، (د.ط)، الدار البيضاء، أفريقيا للنشر.

راغب، نبيل،(1998):لغة التعبير بالجسد في الفن والتجارة والسياسة، (د.ط)، القاهرة، دار غريب.

الزاهي، فريد، (1998): الجسد والاستراتيجية المظهرية في الثقافة العربية الإسلامية، فلسطين ،مجلة الكرمل، العدد 54.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 157 2/8/17 10:06 AM

السمري، إبراهيم عبد العزيز، (2010): اتجاهات النقد في القرن العشرين، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية.

شولز، روبرت، (1994): السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

علي، عواد،(1996):شفرات الجسد،جدلية الحضور والغياب في المسرح، ط1، عمان، دار أزمنة.

عبد المطلب، محمد، (1995): قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، (د.ت)،القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فضل، صلاح، (2005): مناهج النقد المعاصر، ط4، القاهرة، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي.

كريسطيفا، جوليا، (1991): علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط2، الدار البيضاء، دار توبقال.

مبارك، حنون، (1987): دروس في السيميائيات، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر.

محمود، محمد حسين، (2014): شعرية الجسد، عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، فحص أثر الجسد في هذين العصرين، ط1، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

مرتاض، عبد الملك، (1998): في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

مندولا، (1997): الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، (د.ط)، بيروت، دار صادر.

النعيمي، فيصل غازي، (2010): العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد، ط1، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

هلسا، غالب، (1981): المكان في الرواية العربية، ضمن كتاب الرواية العربية واقع وآفاق، ط1، بيروت، دار ابن رشيد للطباعة والنشر.

الهودلي، وليد، (2003): ستائر العتمة، ط1، فلسطين، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي.

هينكل، روجرب، (1995): قراءة الرواية، مدخل إلى تقنيات التفسير، ترجمة وتقديم: صلاح رزق، ط1، القاهرة، دار الآداب.

وورد، ديفيد، (1999): الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكو، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي.

ياغي، عبد الرحمن،(1999): في النقد التطبيقي مع روايات فلسطينية، ط1، عمان، دار الشروق.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 158 2/8/17 10:06 AM

The Sign and the Novel: A Semiotic Study of Walid Al-Hodali's Novel Curtains of Darkness

Mohammed Mustafa Kullab

College of Arts - The Islamic University (Gaza)
Gaza - Palestine

Abstract:

The paper employs a semiotic analysis of the sign in the novel Curtains of Darkness in order to determine the nature of the writer's use of signs and their role in the formation of the narrative space, as well as the writer's ability to invest semiotic signs in the production of a narrative that is capable of expressing his experiences and create semantic and aesthetic stimuli that increase the openness of the text on wide interpretive spaces.

The researcher used the descriptive analytical approach to study semiotic space of the narrative sign in the novel Curtains of Darkness by examining the concept of the sign, the parallel sign, the temporal sign, the spatial sign, and the physical sign.

Keywords: sign, semiotics, Time and space, body language, Al-Hodali.

□□□□□□ □□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 159 2/8/17 10:06 AM